الدرس السادس العاشر

تفسير سورة المعارج [١ :١٧]

سورة المعارج، سميت بهذا الاسم لورود هذا اللفظ فيها، {مِّنَ اللهِّ ذِي الْمَعَارِجِ} [المعارج:٣]، وهذه السورة الشريفة ذات مقصدين واضحين.

أحدهما: إثبات المعاد، وبيان أحوال القيامة.

الثاني: بيان صفات الناجين في ذلك اليوم وهم المصلون.

{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} [المعارج:١] أي دعا داع بعذاب واقع، وكأنه وقع في الآية تضمين، والتضمين أن يأتي بفعل ويضمنه معنى فعل غيره، والدليل على وجود هذا التضمين أنه قال: بعذاب، فدل ذلك على وجود فعل مضمن وتقديره: استعجل مستعجل بعذاب واقع.

واستعجال المشركين بعذاب الله تكرر ذكره في أي كثر منها قول الله ﷻ: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُّ وَعْدَهُ} [الحج:٤٧]، {أَتَى أَمْرُ اللهِّ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [النحل:١]، فقد كانوا لفرط تكذيبهم وإنكارهم وجحودهم يستبعدون العذاب، بل ينكرونه ويزعمون أن لا بعث، ويتحدون النبي ﷺ قائلين: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين.

وقيل أن الذي سأل هذا السؤال ودعا بهذه الدعوى النضر بن الحارث بن كلدة، كما حكى الله ﷻ ذلك عنهم في سورة الأنفال حين قالوا: {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال:٣٢]، ما أحمقهم! كيف يستعجلون العذاب ويستدعونه؟ وماذا ينتفعون من وراء ذلك؟ وإنما هدفوا من هذا الكلام إقناع الغوغاء والدهماء أن هذا أمر لا حقيقة له، إلى درجة أنهم يستدعونه فلا يقع.

وقد وصف الله تعالى هذا العذاب بأنه واقع كما قال في آية أخرى: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ} [الطور:٧]، وقال ﷻ: {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذاريات:١-٦]، وقال:

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

{إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ} [المرسلات:١-٧] فالله ﷻ أكد وقوع العذاب بمؤكدات عديدة، بحيث لا يبقى أدنى ذرة من شك من تحقق وقوعه.

وإنما نكَّر الله السائل وأبهمه تحقيرا له، فلم يصرح به ولا بوصفه، {لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ} [المعارج:٢]، لا مدفع لعذاب الله تعالى ولا مرد له.

{مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ} [المعارج:١-٣] وصف الله نفسه بأنه ذو المعارج، ومعنى ذو المعارج هو ما فسرته الآية بعدها، {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج:٤] فهو ﷻ له الرتب العلا والعلو المطلق في ذاته كما أن له العلو المطلق في أسمائه وصفاته وقهره.

وقد جاء هذا اللفظ في ذكر التلبيات التي كان يلبي بها الناس عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ، أَنَّ سَعْدًا، سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَبَّيْكَ ذَا الْمَعَارِجِ، فَقَالَ: (إِنَّهُ لَذُو الْمَعَارِجِ، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا نَقُولُ ذَلِكَ)[1]، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته، (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ)[2] لكنه أقرهم ولم ينكر عليهم هذا، فهو ﷻ ذو المعارج، والعروج هو الصعود، وفي الآية دليل على علوه ﷻ، فإن الملائكة تعرج إليه وكذلك الروح.

فعروج الملائكة يكون بصعودها، إذ الملائكة عليهم صلوات الله وسلامه يهبطون ويصعدون ما بين السماء والأرض بأمر الله تعالى إذ هم المنفذون لأوامره الكونية.

وأما الروح فربما كان جبريل عليه السلام كما قال في الآية الأخرى: {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ} [القدر:٤] وقال: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} [الشعراء:١٩٣-١٩٤]، فمن أسماء جبريل أو ألقابه الروح، فيحتمل أن المراد بالروح ها هنا جبريل عليه السلام، وهذا أقرب.

[1] أخرجه أحمد رقم (١٤٧٥).
[2] أخرجه البخاري رقم (١٥٤٩)، ومسلم رقم (١١٨٤).

ويحتمل أيضًا أن يراد بالروح جنس الأرواح، وذلك أن الأرواح تصعد إلى السموات، فأما روح المؤمن فإنه إذا صُعد بها بعد مفارقة البدن فإنه يستفتح لها في سماء كما في حديث البراء بن عازب، فيقال من؟ فيقال: فلان بن فلان، بأحب الأسماء التي كان يسمى بها في الدنيا، فيرحب بها ملائكة الرحمن حتى تبلغ إلى السماء السابعة التي فيها الرحمن سبحانه، فيأمر سبحانه أن ترد في الأرض كما قال: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه:٥٥]. لكنها تفتح لهم أبواب السماء. كما في حديث البراء بن عازب قَالَ: (فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ". قَالَ: " فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ ". قَالَ: " فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ ". قَالَ: " وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي ". قَالَ: " وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ ". قَالَ: " فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ "، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: " اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ". ثُمَّ قَرَأَ: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ، فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} [الحج: ٣١] " فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ)[1].

{فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [المعارج:٤]، هذا يؤيد أن الروح في الآية جبريل؛ لأن هذا التعليق بالظرف {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} يتعلق بالملائكة وسيد الملائكة جبريل عليه السلام ولا يكون ذلك الخروج لأرواح العباد.

وقد قيل أقوال متعددة في المراد بهذا التقدير خمسين ألف سنة فيما يعهدون،

القول الأول: هو المسافة ما بين العرش العظيم الذي خلقه الله تعالى واستوى عليه إلى مركز الأرض السابعة. وقد وردت أحاديث كثر في بيان ما بين كل سماء وسماء وكثف كل سماء، فقال صلى الله عليه وسلم: (هل تدرون كم بين السماء والأرض؟، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: بينهما

[1] أخرجه أحمد رقم (١٨٥٣٤).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

مسيرة خَمسمائة سنةٍ، وِمن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثَفُ كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحرٌ بين أسَفله وأعلاه كما بينَ السماء والأرض)[1].

القول الثاني: هو المدة الفاصلة ما بين قيام الساعة إلى بعث الناس.

القول الثالث: أن مدة الدنيا منذ خلق السموات والأرض إلى قيام الساعة.

القول الرابع: إنه يوم القيامة، وهذا أقرب الأقوال، وأنه يوم طويل جدا عسير على الكافرين غير يسير، حتى (سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مَا طُولُ هَذَا الْيَوْمِ؟ فَقَالَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنْ حَتَّى يَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا)[2]، يعني كأنه صلاة من الصلوات.

{فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً} [المعارج:٥] أمر الله ﷻ نبيه بالصبر الجميل، والصبر الجميل هو الذي لا ضجر فيه ولا تبرم ولا تأفف، فليس كل صبر يكون جميلا، من الصبر ما يكون صبرا اضطراريا، يصبر صاحبه على مضض، أما الصبر الجميل فهو الصبر المقرون بالرضا وحسن الظن بالله تعالى، والإحتساب، كما قال معزيًا ابنته: (مُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ)[3].

فأمره ﷻ أن يصبر صبرا جميلا على أذى المكذبين، فإنهم تفننوا في إنكار ما جاء به النبي ﷺ،ومن ذلك أنه (جَاءَ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَظْمٍ حَائِلٍ فَفَتَّهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَيَبْعَثُ اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَبْعَثُ اللهُ هَذَا يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ» قَالَ: فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [يس: ٧٧] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ)[4]، ويهزؤون به ويقولون: ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين، إلى غير ذلك من صور الأذى التي كانوا يجبهون بها النبي ﷺ، فأمره ربه بالصبر الجميل.

[1] أخرجه أحمد رقم (١٧٧١).
[2] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (١/ ٥٥٦)، والطبري في تفسيره (٢٣/ ٦٠٢).
[3] أخرجه البخاري رقم (٧٣٧٧)، ومسلم رقم (٩٢٣) واللفظ له.
[4] أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٣٦٠٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

في هذا ملحظ لكل من دعا إلى الله تعالى ، فإن الصبر الجميل يهون على صاحبه، أما الصبر الذي يكون مصحوبا بضجر وتبرم فإنه ثقيل على صاحبه، {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا} [المعارج:٥-٦] أي أن أولئك المنكرين المكذبين يستبعدونه، بل وينكرونه، فيرونه رؤية وهمية فيما يبدو لهم بعيد التحقق، أما من جهة الرب ﷻ والمؤمنين: {وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [المعارج:٧]، فإن كل آت قريب، فهو لتحققه وصدق موعوده يبدو قريبا.

ولما أن ذكر الله ﷻ هذه المفارقة بين نظر هؤلاء ونظر المؤمنين وصف ذلك المشهد. ويُلاحظ عناية القرآن بمشاهد القيامة، فإن مشاهد القيامة في القرآن تبسط بسطا وتفصل تفصيلا، وكأن هذه الحوادث والأحوال تكتنف قارئه من كل جانب، إن رفع رأسه وإن طأطأ، تحولات كبرى في السموات وفي الأرضين وفي الجبال وفي الناس، تأمل هذا الوصف المهيب.

{يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ} [المعارج:٨] كما قال في آية أخرى: {وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} [الرحمن: ٣٧]، والمهل قيل أنه ذائب الفضة، وقيل أن المهل هو دردي الزيت، يعني الزيت العكر، فتتحول هذه السماء الزرقاء إلى ما يشبه هذا اللون، وردة كالدهان، كذائب الفضة، فيتغير لونها ويستحيل، تصبح باهتة، {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ} [المعارج:٨]، وهذا تغير اللون، وهناك تغيرات أخرى، {وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا} [النبأ:١٩]، {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلآئِكَةُ تَنزِيلاً} [الفرقان:٢٥]، {وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} [الحاقة: ١٦].

{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} [المعارج:٨-٩]، هذه الجبال الشاهقة، السامقة، الصلدة تصبح كالعهن، والعهن هو الصوف، كما قال ﷻ في سورة القارعة: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} [القارعة:١-٥]. يعني كالصوف المثار المتطاير.

وهذا حال من أحوالها، فإن الجبال يوم القيامة تمر بأطوار شتى، قال الله ﷻ: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} [الواقعة:٥] يعني فتت وذريت، وقال في آية أخرى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا* فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا} [طه:١٠٥-١٠٧].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

وفي موقف من المواقف يقول: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} [النمل:٨٨]، فهذه الجبال تمر في وقت من الأوقات يوم القيامة مر السحاب، ولا صحة لما يدعيه بعض المعاصرين من أن المقصود بذلك سير الجبال في هذه الحياة الدنيا بحكم دوران الأرض، إذ الآيات جاءت في صفة يوم القيامة، فالمراد أن الجبال تمر بمراحل وأحوال متعددة يوم القيامة إلى أن تصبح قاعا صفصفا، والصورة المذكورة في السورة حال كونها كالصوف المنفوش.

{وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا} [المعارج:٨-١٠] أي لا أحد يلتفت لأحد مهما بلغت درجة قرابته وحميم صلته، كل مشغول بنفسه، كل معني بمصيره، لا يدري أين يساق، حميم نكرة في سياق النفي فدلت على العموم، فهذا ينسحب على كل أحد، لا أحد يسأل عن غيره، كل مشغول بنفسه يريد النجاة والفكاك، لا أنهم مغيبون عنهم كلا، فقد قال الله: {يُبَصَّرُونَهُمْ}، يعني يرونهم ويعرفونهم، يعرف أن هذا أخوه وأبوه إلى غير ذلك، يعرفون جميع الصلات والقرابات، لكن كل يَنفُضُ نفسه عن الآخر.

{الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ} [الزخرف:٦٧]، أجارنا الله وإياكم، {يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ}، تخيلوا، هذا الكرب الذي يبلغ بالإنسان أن يفتدي ببنيه، نحن في هذه الدنيا أعز من علينا أبناؤنا، الإنسان يفتديهم بما يستطيع، يتمنى أن يقع المصاب عليه دون بنيه، ويحوطهم ويمنعهم ويدفع الغالي والنفيس في سبيل حفظ بنيه، ثم هو يوم القيامة يود، مودة من سويداء قلبه أن يفتدي ببنيه.

{وَصَاحِبَتِهِ} [المعارج:١٢] زوجته، خليلته التي كانت أقرب الناس إليه، يحبها محبة من نوع آخر ليست كمحبة بنيه ومع ذلك فإنه مستعد أن يفتدي بها، {وَأَخِيهِ} أخوه الذي كان يعضده في الدنيا ويقف إلى جنبه ويعتزي به يتنصل عنه يوم القيامة ويستعد أن يفتدي به.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

{وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ} [المعارج:١٣]، فصيلته قيل هي أمه؛ لأنه انفصل عنها، وقيل: قبيلته، لأنه واحد وفرد منها فينمى إليها فهو كأنه فصيل من فصائلها، كما يقال: فصيلة كذا يعني جنس كذا.

فجميع هؤلاء الأحماء والأقرباء والأصدقاء كلهم كأنما هم في سوق مزاد، مستعد أن يبيعهم ويتخلى عنهم، بل لو كل من عليها يقعون فداء له لما تردد في ذلك، وذلك لهول العذاب، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: ٣٦]، {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [الرعد: ١٨]، {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} [الزمر: ٤٧]، وهو عذاب شديد، قد أدركوا وألموا بشيء من مقدماته، فإن أهل الموقف يجدون من مقدمات العذاب ما يحملهم على هذا الأمر ويتذكرون وعيد الله ﷻ، فهم يسمعون حسيسها قبل أن يدخلوها.

ولهذا قال ربنا ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُون * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُون} [الأنبياء:١٠١-١٠٢] وفي الحديث: (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا)[1].

{وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ} [المعارج:١٤].

ثم قال الله ﷻ كلمة قاطعة حاسمة لا تبقي مجالا لرجاء، وتشعر بالتيئيس المطلق فقال: {كَلاَّ}، أي لن يكون ذلك، ولن يقع فداء. {إِنَّهَا لَظَى} [المعارج:١٥] مرجع الضمير إلى النار، وهذا من أسمائها التي هي أعلام وأوصاف، وذلك لتلظيها على أصحابها.

[1] أخرجه مسلم رقم (٢٨٤٢).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

{نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى} [المعارج:١٥-١٦] والمراد بالشوى قيل جلدة الرأس، وقيل المقادم وأطراف اليدين والرجلين، فهي تنزعه كالذي يأتي باللحم ويصليه على النار ثم ينزع منه الشواء.

{تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى} [المعارج:١٦-١٧] لما كان في الدنيا يدعى فيدبر، وينادى فيولي، جوزي يوم القيامة، بهذه النار التي كان يكذب بها، ويُحذر منها أنها تطلبه، كأنما تقول: إلي، إلي، وقد قال ﷻ: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيد} [ق:٣٠].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله